



لم تكن حركة الإصلاح الديني في أوروبا حدثاً مفاجئاً، بل كانت حركة لها أصولها وجذورها في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية التي حاولت التخلص من قيودها الثقيلة، والانفتاح على التحولات الجديدة التي ظهرت بواورها في القارة الأوروبية، وأن تمكنت الكنيسة الكاثوليكية من قمع هذه الحركات المرة تلو الأخرى وبقسوة، إلا أنها لم تتمكن من قلع جذورها، فبقيت آثارها تفعل فعلها بالتوافق مع متغيرات العصر، وظهر مفكرون طالبوا بإجراء إصلاحات محدودة، منتقدين بعض المظاهر السلبية في الكنيسة لكنها عاندت، ووقفت بوجه كل مطالب الإصلاح، واصفة إياه بالإلحاد والمروق، متخذة من ذلك حجة لإصدار حكم الموت عليه في أكثر الأحيان (٢).

دوافع الإصلاح الديني :

١. مساوئ الكنيسة الكاثوليكية، وممارسات رجالاتها كانت أهم دوافع وأسباب الإصلاح الديني، ومن المعروف أن الكنيسة كان لها سيطرة على حياة الناس وعقولهم لفترة طويلة من الزمن، ومارست القمع وأساليبه الوحشية تجاه أي رأي لا ينطبق مع آرائها وميولها، وحاربت الكنيسة طروحات المفكرين الأحرار الذين وصفتهم بالإلحاد والمروق، وقضت على عدد كبير منهم عن طريق محاكم التفتيش، (٣) وفي الوقت نفسه كان العديد من رجالات الكنيسة يعيشون حياة بعيدة عن المسيحية الأولى وتحولوا إلى أقطاعيين يمتلكون مساحات واسعة من الأراضي، كما أن الكنيسة كانت حريصة على تفسير الدين بما يخدم مصالحها، ولذلك منعت الناس من قراءة الكتاب المقدس دون إشراف رجل دين، حتى لا تفسر نصوصه بصورة لا تخدم مصالحها وساعدتها في ذلك حقيقة أن رجال الدين كانوا يمثلون الفئة المتعلمة الوحيدة تقريباً في ذلك الوقت.

٢. ساهمت النهضة الأوروبية، التي أدت إلى تقوية عناصر النظام القائم في تمهيد الإصلاح الديني، فقد أدت أفكار هذه النهضة وإبداع أعلامها وقادتها، وبعث التراث الكلاسيكي، والتقدم العلمي الجارف، والحركة الإنسانية، واختراع الطباعة إلى فتح أبواب واسعة للناس المتطلعين نحو حياة جديدة بعيداً عن قيود وسيطرة الكنيسة (٤) كما كان للاستكشافات الجغرافية الكبرى ونتائجها العلمية دور في بطلان الكثير من أراء الكنيسة التي كانت متمسكة بها. (٥)

٣. شكل نمو الشعور القومي وقيام الحكومات الملكية القومية دافعاً مهماً في نهضة الإصلاح الديني، إذ اخذ المجتمع الأوروبي يتطلع إلى إقامة كنائس قومية بعيدة عن سيطرة السلطة البابوية، كما أن الناس طالبوا استبدال اللغة اللاتينية بلغتهم القومية في إجراء الطقوس الدينية التي ما كان يفهمها إلا فئة من المثقفين ورجال الدين، وقد تجلّى ذلك بوضوح في قيام رواد الإصلاح بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية، وتأليف الترانيم والترانيل الدينية بهذه اللغات، وكانت هذه النزعة تقابل النزعة (الكوسموبوليتية) للبابوية التي ادعت السيادة العالمية، وكانت البابوية تدرك المخاطر الناجمة عن تنامي الشعور القومي ومحاولات إقامة الحكومات الملكية القومية، لذلك وقفت بكل إمكانياتها ضد هذه التوجهات، ومن هنا كانت محاولات البابوية فرض هيمنتها السياسية وإخضاع السلطة الدنيوية لها، فدخلت في صراع مرير مع الإمبراطورية، وأبدت نشاطاً دبلوماسياً واسعاً، وقد واجهت السياسة البابوية هذه ردود أفعال قوية من قبل

الملكيات القومية في بلدان أوروبا الغربية، كما أن الادعاءات البابوية حول السلطة السياسية أثارت نقمة البورجوازية في هذه البلدان .(٦)

٤. أسهم الإنسانيون، (٧) بدور حيوي من خلال توعية الناس وتهيئة العقول لقبول فكرة الإصلاح، فقد انتقد هؤلاء الأوضاع السيئة والمرتدية في الكنيسة ورجال الدين وأفسحوا المجال أمام النقد وحركة التغيير والإصلاح، وبذلك مهدوا بدورهم الطريق لانفجار حركة الإصلاح الديني .(٨)

والمعروف أن ألمانيا شهدت إرهابات حركة الإصلاح الديني الأولى في القرن السادس عشر، ولا شك أن مجموعة من العوامل أدت إلى تكون ألمانيا أرضية خصبة لقيام أقوى حركة إصلاحية فيها .

١. الإصلاح الديني في ألمانيا :

كانت ألمانيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي مكونة من اتحاد مجموعة من الإمارات الدويلات الإقطاعية المستقلة تقريباً، والمدن الحرة والأراضي الخاضعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت كل واحدة منها تعمل من منطلقات محلية ضيقة، وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها الإمبراطور مكسميليان (1493-1519م)، بهدف تقوية السلطة

المركزية، وإقامة مؤسسات إمبراطورية موحدة لكل أنحاء الإمبراطورية، إلا أن هذه المحاولات لم تحقق النتائج المرجوة، فقد وقف الأمراء الألمان ضد محاولات الإمبراطور في إقامة الجيش الإمبراطوري وفرض الضرائب الموحدة على أنحاء الإمبراطورية، أما حفيد مكسمليان الإمبراطور شارل الخامس ١٥١٩-١٥٥٥م) فقد كان ملكاً على اسبانيا في الوقت نفسه، وبذلك كان أكبر زعماء أوروبا، ولكن موقعه كملك لعدة بلدان (اسبانيا والأراضي المنخفضة وإيطاليا)، فضلاً عن كونه إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، منعه من إقامة سلطة مركزية في الإمبراطورية نتيجة لانشغاله بأحلامه التوسعية في إقامة إمبراطورية الكاثوليكية عالمية، وصراعه مع ملك فرنسا فرانسوا الأول، وإهماله الشؤون الألمانية، كل ذلك أدى إلى استمرار حالة الانحلال والتدهور في الإمبراطورية ككل.

وكانت الإمبراطورية قد دخلت مرحلة الانحلال منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وأخذ الأمراء النابون يلعبون دوراً أساسياً في انتخاب الإمبراطور، وأصبحت الإمارات الإقطاعية تختلف من حيث الحجم والتطور السياسي والاقتصادي، ومن الجدير بالذكر أن الإمارات كانت في حالة عداء وصراع مستديمين بعضها مع بعض، وتنامت بمرور الزمن سلطة الأمراء المحليين، فقد كان كل أمير يسك عملته النقدية الخاصة، ويجمع الضرائب، ويشكل المحاكم الخاصة، كما كان يستغل ضعف السلطة المركزية ويعمل على تقوية مركزه والاستحواذ على الأراضي والمدن القريبة من إقليمه، كما كانت الهيئات الحاكمة في المدن الإمبراطورية تمارس السياسة نفسها لتقوية مركزها، وتستحوذ على كل شيء في المدينة بحجة إدارتها، وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الحالة إلى تدهور الحياة الاقتصادية، فالحروب الإقطاعية بين الدويلات، وتنافس الأمراء في إقامة جيوشهم الخاصة، والاهتمام بمظاهر الترف والأبهة في بلاطاتهم، كانت كلها على حساب دافعي الضرائب والإتاوات من الفلاحين بالدرجة الرئيسة.

في حين أخذت الكنيسة الكاثوليكية تحتل موقعاً خاصاً في الولايات الألمانية، ومع بداية القرن السادس عشر كان كبار رجال الدين وعدد من الأساقفة في الولايات الألمانية يمثلون في الوقت نفسه أمراء إقطاعيين إمبراطوريين وكان البابا مستبد في إدارة الحكم وفرض قوته على عامة الشعب الألماني، فأرسل أتباعه من رجال الدين إلى ألمانيا يجمعون المال بعدة طرق، فتمادى أتباع البابا في أعمال الرشوة والابتزاز فكانوا يجمعون المال من المرشحين للتعيين في الوظائف الكنسية، (١١) وبيع صكوك الغفران، فضلاً عن الهبات والهدايا التي كانت ترسل إلى روما من قبل الأمراء والقوى المتنفذة والحجاج، وقد صرفت هذه الأموال على إقامة المباني والقصور والكنائس وزخرفتها، كما مارسوا سلطة تفسير وتطبيق

ومراقبة تنفيذ أحكام الدين، فملكوا حق الإباحة والتحرير مما جعل لهم على الناس سلطاناً لا تستقيم حياة الناس بغير طاعتهم .